الفصل الثاني

العداء الأوروبي للاسلام

obeikan.com

obeikan.com

صراع الحضارات

منذ بداية عقد التسعينيات من القرن الماضي (القرن العشرين)، كانت فكرة صراع الحضارات مجرد أطروحة نظرية لأحد الباحثين أو المفكرين ولكن مع بداية القرن الجديد وبالتحديد بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، تم وضع صراع الحضارات في صلب السياسات والاستراتيجيات الغربية ، وانتقلت من حيز التنظير أو النبوءة إلى دائرة الفعل السياسي والتخطيط الاستراتيجي.

وتتم الآن عمليات مركبة للهندسة الكونية ، ويقوم رسام الخرائط الغربي حالياً بتحريك ريشته وأدواته العسكرية والسياسية على رقعة فسيحة من الأرض، من خلال رؤيته التي استقاها من نظرية صراع الحضارات.

وفي هذا الشأن بالغت أغلب المناقشات والدراسات عندنا على الأقل في تقييم هذه الفكرة وبيان فسادها وخطئها، وهناك من طالب بحوار الحضارات بدلاً من صدام الحضارات.

في حين لم يعترف البعض بهذا المفهوم وفضلوا دفن رؤوسهم في الرمال رغم أن الإعلان جاء صريحاً من الجانب الآخر. بينما كانت هناك زوايا وأبعاد أخرى لم تأخذ حقها الكامل من البحث والدراسة، وهذه الزوايا والأبعاد تطرح مجموعة من الأسئلة البحثية الجديرة بالتأمل والنظر منها على سبيل المثال لماذا تصر الحضارة الغربية على منازلة الإسلام، رغم أن المسلمين في أضعف حالاتهم الآن. ولا يمثلون أي تحد للغرب بالمقاييس الكمية والواقعية؟ وأيضاً لماذا أشعل زلزال سبتمبر ٢٠٠١ صراع الحضارات وهل هو مجرد رد فعل للحادث أم أن الأمر معدله سلفاً؟

وبعبارة أخرى لو أن حادث ١١ سبتمبر لم يقع فعلاً هل صراع الحضارات كان سيظل على نفس المنوال الجاري الآن أم كان سيقبع في دائرة الأطروحة الفكرية والنظرية ذات الإيقاع البارد وليس في دائرة التفاعلات الحية والأنشطة الملتهبة.

وأخيراً ماذا عن المستقبل؟ وما هو مستقبل صراع الحضارات؟ وإلى أين تضع الحرب أوزارها؟

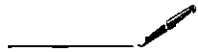

obeikan.com

لماذا ينازلون الإسلام؟

عاد نابليون بونابرت يوماً من إحدى غزواته الناجحة، وتبدو عليه علامات الحزن، فقيل له: لماذا لا تبدو سعيداً وقد سيطرت على كل أوروبا؟ فقال: ليتني ولدت قبل ألف عام. وقتها كان يمكنني أن أدعى أنني إله أو ابن إله ويصدقني الناس. أما الآن فلو ادعيت ذلك ما صدقني أصغر بائعة سمك في باريس. وهكذا دائماً الطغاة إذا لم تكفهم الأرض، تطلعوا إلى السماء.

من هذا الفهم لطبيعة الغرور والجهل البشري خصوصاً لدى الطواغيت يمكننا أن نجد العون والمساعدة في اجتهادنا للإجابة عن السؤال الدقيق، لماذا تصر الحضارة الغربية على منازلة الإسلام وحضارته رغم أن المسلمين في أصعب وأقصى مرحلة من تاريخهم لا يمثلون أي تحدي أو خطورة على سيادة وهيمنة الغرب الحالية، بل هم يسيرون عن رضا في فلكه، ويعيشون في دائرة الإلحاق والتبعية. ويمكننا القول أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية لذلك يمكننا تناولها تباعاً كما يلي:

السبب الأول: السقوط الحضاري الغربي:

إن الحضارة الغربية تعاني من حالة إفلاس روحي وسقوط حضاري وتفتقر إلى المنظومة الأخلاقية الشاملة التي يتمتع بها الإسلام وقد قال المؤرخ الكبير أرنولد توينبي في معرض تقييمه للحضارة الغربية: «الحضارة الغربية أشد الحضارات إجراماً في التاريخ». وتاريخ أوروبا سواء في العصور الوسطى أو العصر الحديث يعطي عشرات الأمثلة على ذلك. العصور الوسطى تميزت بالحروب الدينية الدامية والصراع المستعر بين البابا والامبراطور، أو السلطة الزمنية والسلطة الروحية فضلاً عن كم الجرائم التي

ارتكبوها خلال الحروب الصليبية. وقد جاهدهم الزعيم صلاح الدين الأيوبي بأسمى أخلاق الفروسية واعترفوا هم بها وعندما قال له بعض المسلمين : لماذا لا تعاملهم بالمثل قال كلمته الرائعة: «نحن لا نكفر بأخلاقنا من أجل أعدائنا».

أما عصر الاستعمار بمرحلتيه الماركنتيلية (الاستعمار التجاري) والامبريالية. فقد تميزت المرحلة الأولى بالسيطرة على البحار وإقامة المحطات التجارية وتجارة الرقيق.

أما المرحلة الثانية (الامبريالية) فقد تميزت بالاحتلال المباشر للأرض ، ونهب الثروات وفتح الأسواق.

وفي كل ذلك كان النمط معروفًا استعباد للشعوب وسلب واغتصاب لكل ثروة ومصادرة لكل حق. أما تاريخ ونشأة الولايات المتحدة على وجه الخصوص، فهو أقبح فقد تم إبادة شعوب بأكملها (الهنود الحمر) واستبعاد شعوب بأكملها في إفريقيا في أكبر تجارة دولية للرقيق شهدها العالم (وتراوح عددها بين ١٥ مليون و٢٥ مليون حسب تقديرات أهل الغرب نفسهم وتم إقامة أكبر شبكة للسكك الحديدية في العالم على أشلاء هؤلاء الزنوج. في حين تم هيكلة الاقتصاد الأمريكي على أكتاف هؤلاء العبيد خصوصاً في ولايات الجنوب، وقامت الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦٥م لإنهاء ما كان يسمى حتى ذلك الوقت «بالمؤسسة الخاصة» أو «نظام العبيد» وحتى بعد ذلك لم يكن لهم مكان في المجتمع.

والولايات المتحدة التي جعلت من نفسها الحكم والقاضي الذي يحاكم الأنظمة والشعوب على شبهة امتلاك أسلحة الدمار الشامل هي الوحيدة التي استعملت هذا السلاح ضد مدينتي هيروشيما وناجازاكي في اليابان رغم أن اليابان كانت في طريق مفاوضات الاستسلام بناء على اقتراح الامبراطور وعلى نفس المنوال وبذلك الطابع المادي الاستغلالي الذي يعبر عن المصالح الصماء العارية من أي مضمون

إنساني وأخلاقي، استمرت مسيرة الحضارة الغربية في تكريس اللاعدالةواللامساواة وقد عبرت عن ذلك مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة في صراحة تحسد عليها: «الفقر خطيئة، وعلى الفقراء أن يموتوا جوعاً تكفيراً عن خطيئتهم!!». وهي أيضاً التي قالت لا يوجد شيء اسمه القانون، بل يوجد صراع الأقوياء في غابة الرأسمالية» وهو ما دفع الكثير من الكتاب والمفكرين أن يطلقوا على تلك الرأسمالية «الرأسمالية المتوحشة». وواصلت الرأسمالية: رحلة تطورها حتى وصلت إلى محطة العولمة والتي شطرت العالم إلى شمال غني وجنوب فقير. وعمقت الفجوة بين الفقراء والأغنياء في العالم وداخل المجتمع الواحد. ووصل ضحايا العولمة في يومين اثنين إلى ما يعادل ضحايا قنبلة هيروشيما من الفقر والجوع والتشرد.

وما نود أن نلفت النظر إليه، هو أن الحضارة ليست في الهاي تيك ، والبستالايت وأشعة الليزر ، والفمتو ثانية ، وصواريخ كروز، وغيرها من مظاهر التقدم المادي ولكنها رقى إنساني ، وسمو أخلاقي ، وعدالة بين الشعوب، وهو ما فشلت فيه الحضارة الغربية بامتياز. لقد استطاعت الحضارة الغربية ورأس حربتها الولايات المتحدة، أن تقنع العالم كله بقوتها ولكنها لا تستطيع أن تقنع أي مخلوق على وجه الأرض بإنسانيتها. ومن هنا كان لابد من البحث عن النموذج الأخلاقي والمعرفي المعبر عن ضمير الإنسانية والمتمثل في الإسلام، والذي يتلاقى مع أحلام وتطلعات الإنسان في حياة كريمة خالية من الاستعباد والمظاليم. ومحاولة تحطيمه حتى لا تنكشف عوراتهم في أي وقت.

السبب الثاني العقدة التاريخية الغربية:

نتيجة للمواجهات العسكرية وصدامات القوة التي حدثت بين الإسلام والغرب خلال المراحل التاريخية المتعاقبة منذ الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام مروراً بالفتوحات في عهد الدولة الأميرية ، والتي شملت تلك الرقعة

الفسيحة من العالم القديم، والتي امتدت من بلاد الهند والسند ، وبلاد ما وراء النهر حتى الصين شرقاً إلى شاطئ بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) غرباً.

كل ذلك مثل لغزاً أمام أعداء الإسلام. إذا كيف تكونت تلك القوة الهائلة؟ وكيف تحققت تلك الإنجازات الضخمة في فترة زمنية وجيزة من عمر الزمن؟ وكيف أمكن للمسلمين أن يحطموا أكبر إمبراطوريتين في العالم القديم وهي فارس والروم وفي وقت واحد وعلى جبهتين دون أن يسبب ذلك أي أعباء فوق الطاقة أو تورط في أزمات عميقة. وهو الأمر الذي جعل أحد أبرز القادة التاريخيين في الغرب وهو نابليون بونابرت يبدي إعجابه بالعرب قائلاً؟ «لقد استطاع العرب أن يفتحوا نصف العالم في نصف قرن !!».

ثم جاءت الحروب الصليبية في العصور الوسطى الأوروبية وليست الإسلامية واستطاع زعيم مثل صلاح الدين الأيوبي أن يقف في وجه أوروبا كلها. وتفشل الحملات الصليبية بعد مائتي عام. ويتم أسر أعظم ملوك أوروبا وهو لويس التاسع في المنصورة، والذي صرح بعد عودته من الأسر: «لقد انكسرت السيوف، الآن تبدأ حرب الكلمة»، وكانت تلك المقولة هي الترجمة الحقيقية لعملية صياغة وتشكيل العقل والوجدان الغربي تجاه الخطر الإسلامي والمارد الذي يمثل تهديداً للوجود الغربي. وذلك عبر جهد وعمل دؤوب ومنظم ومتواتر عبر القرون عن طريق مؤسسات الاستشراق والأنشطة الكنسية.

وتم رسم صورة قبيحة وكريهة للإنسان المسلم فهو الهمجي والبربري والإرهابي السفاك للدماء والذي يتعجب الكثيرون منا الآن من ظهور هذه الصورة النمطية السلبية في كل مستويات وأعمال الميديا الإعلامية الغربية. وفي ثنايا الخطاب الثقافي والإعلامي الغربي. وعلى ألسنة القادة والسياسيين الغربيين في أوقات الأزمات مثل

التصريحات التي أدلى بها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش ورئيس الوزراء الإيطالي بير لسكوني قبل ضرب أفغانستان من أنها حملة صليبية وأنها مواجهة بين حضارة الغرب وبربرية الإسلام. وبالطبع فهم الجميع أن الاعتذار كاذب والصدق في فلتات اللسان ومكنون الصدور.

وليس أدل على تلك العقدة التاريخية مما فعله الجنرال اللبني ؟عند دخوله القدس عام ١٩١٧م. عندما قال: الآن انتهت الحروب الصليبية، بينما فعل الجنرال الفرنسي غورو أكثر من ذلك عند دخوله دمشق ، فقد ذهب على قبر صلاح الدين الأيوبي ووضع قدمه على القبر وقال: «ها قد عدنا يا صلاح الدين، وقدمي فوق رأسك ، وعلم بلادي يرفرف فوق سماء بلادك ، الآن انتهت الحروب الصليبية.»، ثم جاءت الدولة العثمانية، والتي استطاع محمد الفاتح أن يفتح المدينة العصية القسطنطينية والتي أحدث سقوطها دوياً هائلاً في أوروبا وكان فتح القسطنطينية في ذلك الوقت يعادل الآن فتح لندن وباريس وروما في وقت واحد.

وخاضت الدولة العثمانية ٤٠ حرباً ضد روسيا من أجل منعها من الوصول إلى الشعوب والولايات العربية والمياه الدافئة والتي تعتبر الممر التجاري وقلب العالم. وحارب كل شعوب أوروبا كبيرها وصغيرها. من فيينا إلى البلقان إلى اليونان إلى الجبل الأسود إلى الإنجليز والفرنسيين ليمنعهم أيضاً كل تلك الوقائع والأحداث التاريخية وغيرها الكثير هي التي أوجدت ذلك الحقد الأسود تجاه المسلمين والتي تجعل الغرب الذي يدعى الريادة في العقلانية والمنطقية يفقد دائماً توازنه عند تعامله مع الإسلام.

السبب الثالث: انتهاز الفرصة والخوف من المارد:

هذا السبب يتشابك بشكل منطقي مع السببين السابقين، فإذا كان الغرب يفتقر إلى النموذج والمنظومة الأخلاقية، ولديه عقدة مستحكمة من العداء والكراهية

للإسلام. وفي نفس الوقت فإن العرب والمسلمين في أضعف حالاتهم، وفي حالة يرثى لها من الانكشاف والانقسام.

بالإضافة إلى أن المجتمعات الإسلامية مخترقة ولا يوجد لديها مناعة أو حصانة وفي حالة قابلية للاستعمار كما قال مالك بن نبي، وتعاني من الازدواجية، وحالة استقطاب حادة بين الإسلاميين والعلمانيين من جهة وبين الوطنيين والقوميين من جهة أخرى أو اليمين واليسار من جهة ثالثة. بالإضافة إلى أنه يوجد منذ مائتي عام في ثقافتنا الوطنية والقومية في كل المجتمعات الإسلامية خطان فكريان متوازيان لا يلتقيان أبداً ولا يوجد أي حوار أو تواصل بينهما. التيار الأول يطلق عليه تيار التحديث أو التنوير . والتيار الثاني هو ما يسمى التيار المحافظ، أو بعبارة أخرى أنصار الوافد وأنصار الموروث. أو التراث والمعاصرة وهو الأمر الذي يضعف أو يلغي أي إمكانية للتوافق العام. والتوافق العام هو أحد المقومات الأساسية لقيام أي تجربة سياسية أو تنموية ناجحة.

وفوق ذلك جاءت القضية الفلسطينية والانتفاضة الأولى والثانية للشعب الفلسطيني، بالإضافة إلى ضرب العراق في حرب الخليج، الثانية وما بعدها من حصار العراق وإسقاط نظامه، ليعري الأنظمة العربية ويبين مدى عجزها وتهافتها. كل ذلك شكل الصورة الرديئة للعجز والضعف العربي، وأعطى فرصة استثنائية قد لا تتكرر للإجهاز على الفريسة، وبالتالي فمن الخطأ الاكتفاء بضعف الخصم وعدم تشكيله لأي خطر أو مزاحمة على الأرض، بل يجب التخلص منه نهائيًا، فالغد غير مضمون، وقد يخرج هذا المارد من القمقم (الإسلام). أو يسترد المريض عافيته فتنقلب كل الموازين، وقد عبر عن ذلك الرئيس الأمريكي السابق نيلسون في كتاب له بعنوان «انتهزوا هذه اللحظة» حيث تنبأ فيه بأن القرن الحادي والعشرين سيشهد صراعاً بين العالم الحر والعالم الإسلامي.

صراع الحضارات و١١ سبتمبر

كما أسلفنا كان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين منا. أن فكرة صراع الحضارات التي نادى بها صامويل هانتجتون وبرنارد لويس وغيرهما. هي مجرد كتابات لكتاب أعماهم الغرور وأسكرهم النصر بلا حرب على المعسكر الاشتراكي عقب انهيار الاتحاد السوفيتيي وسقوط جدار برلين عام ١٩٨٩. ولكن بعد أحداث الثلاثاء الدامي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فوجئ الجميع بأن هذه الرؤية النظرية قد تم اعتمادها عمليًّا ووضعت موضع التنفيذ الشامل وأصبحت مدرجة في ثنايا السياسات الغربية عموماً. والأهداف والخطط الإستراتيجية للولايات المتحدة على وجه الخصوص. ومنذ الساعات الأولى للحدث الكبير بدأت التفاعلات الحية والحارة لصراع الحضارات. وتشكلت كل مظاهر صدام الثقافات حيث تم وضع العربي والمسلم في قفص الاتهام. وانفكت العنصرية من عقالها في موجات عاتية ضد الأقليات والجاليات المسلمة في الولايات المتحدة بعد أن اعتقد الجميع بالنجاح في حصارها إقليميًّا ودوليًّا في مؤتمر مناهضة العنصرية الأخير في دير بان بجنوب إفريقيا قبل أحداث سبتمبر بفترة وجيزة، وجرت محاولات محمومة لتكتيل العالم ضد شعوب وأجناس بعينها لمجرد انتمائها لدين معين، حتى لو كانت هذه الأمم والشعوب تملك من العمق الحضاري والتاريخي، ما تفتقده الولايات المتحدة ذاتها، وتولت الميديا الإعلامية الكوكبية الواقعة تحت السيطرة الصهيونية، النفخ في العقدة التاريخية الغربية السابق الحديث عنها. وتم استدعاء الصورة المقيتة للعربي والمسلم من الذاكرة التاريخية، والإدراك الجمعي في الوجدان الغربي. وتم بعد ذلك الإعلان

عن الحملة الدولية للإرهاب والتي هي موجهة أساساً للمجتمعات العربية والإسلامية. والإرهاب هنا لابد أن تكون له صفة عربية أو إسلامية. بشكل فرضي قسري حاد وصارم، وتم تجريم المقاومة المشروعة في كل الأعراف والقوانين والمواثيق الدولية، فضلاً عن الأديان السماوية. وأصبح لفظ الإرهاب مصطلحًا مطاطًا يتسع ويضيق حسب الهوى والمواصفات القياسية الأمريكية. وتم إلغاء المدارس الدينية في باكستان واليمن، وإنشاء إدارة مختصة في وزارة الخارجية الأمريكية لتعديل وتغيير المناهج الدينية والتعليمية في دول الشرق الأوسط.

وفي شهر يونيه ٢٠٠٤م تم عقد ثلاثة مؤتمرات كونية وهي مؤتمر القمة الأوروبية الأمريكية، ومؤتمر قمة دول الثمانية ثم مؤتمر قمة دول حلف الأطلنطي في استانبل. وقامت الولايات المتحدة في هذه المؤتمرات الثلاثة بتقديم ومناقشة مبادرة الإصلاح للشرق الأوسط الكبير بغرض توحيد مسارات التعامل الدولي مع دول المنطقة يفرض وضع آليات للثواب والعقاب والتي يمكن عن طريقها وضع روشتة الإصلاح الأمريكية موضع التنفيذ. والهدف تفكيك البنية التحتية الاجتماعية والثقافة والمدنية حيث يتم التحكم في العقول ومحاكمة الضمائر والعقائد، وتربية الأطفال وتعليم المرأة وفقاً للهوى الحضاري الغربي، ومن وحي النزعة المركزية الغربية (euro- centrism) التي ترى نفسها مركز وقلب العالم، ومنبع الحكمة، ومصدر وحيد للقيم والمعايير والصواب والخطأ. وهي أعلى درجات الجبروت البشري حيث يتم مصادرة الإرادات والمصائر والحقوق، وشطب الهوية وإلغاء الثوابت جرت في شهر نوفمبر ٢٠٠٤، وفي تجمع انتخابي بولاية فلوريدا الأمريكية أعلن الرئيس الأمريكي بوش قانون متابعة وتقصي الأنشطة المعادية للسامية حول العالم وإنشاء إدارة جديدة تختص بهذا الأمر في وزارة الخارجية الأمريكية بحيث يتم توقيع عقوبات قاسية على الأفراد والشعوب والدول التي

تقوم بتوجيه النقد إلى إسرائيل أو الصهيونية.

وبهذا القانون الأخير تكتمل ثلاثية من القوانين المقيدة للحريات. حيث سبقه «القانون الوطني- باتريوت أكت» والذي يعطي سلطات واسعة وغير محدودة للسلطات الأمريكية في التصنت والتجسس وعمليات المتابعة والرصد والاشتباه والتفتيش وهو الذي يحد من الحريات المدنية ويضع قيوداً على التحركات والحريات الشخصية وهي القيمة العليا التي كانت تزهو بها دائماً الولايات المتحدة، وهذا القانون يطبق بضغوط وكثافة عالية على الجاليات العربية والمسلمة والقادمين من بلاد الشرق الأوسط.

والقانون الآخر هو قانون متابعة الحريات الدينية والذي بموجبه تقوم الولايات المتحدة بالتفتيش على ١٩٢ دولة وكتابة تقارير دورية عن حالة كل دولة. وأيضاً هذا القانون يطبق على غالبية الدول الإسلامية بصفة خاصة. وبالطبع فقد تم دفن مبادئ عريقة في العلاقات الدولية مثل مبدأ سيادة الدول، ومبدأ عدم التدخل في الشئون الداخلية لأي دولة، وبعد عملية السرد لمظاهر وأشكال صراع الحضارات يفرض نفسه التساؤل الهام هل صراع الحضارات كان شيء مرتب له سلفاً وبالتالي ليس له علاقة بحادث سبتمبر أم أن كل هذه المظاهر هي من قبيل رد الفعل الانفعالي العميق. والحقيقة أنه يمكن القول بشيء من العناية والموضوعية. إن الحقيقة مازالت غائبة عن أحداث ١١ سبتمبر، وكل ما صدر ونشر هو اجتهادات لم تصل إلى درجة الحسم أو اليقين، وبالتالي فإن الدخان والغبار الذي تصاعد بكثافة يوم الحادث، مازال موجوداً أمام العقول والأبصار. ولكن ما يلفت النظر هنا هو أن صاموئيل هانتجتون قد نشر نظريته عن صراع الحضارات ضمن دراسة مطولة بعنوان «المصالح الأمريكية ومتغيرات الأمن» في مجلة الشؤون الخارجية في يونيو

عام ١٩٩٣م، وهو أستاذ علوم سياسية، ومدير لمؤسسة جون أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد. وهو شخصية عامة ومعروفة ووثيق الصلة بمراكز ودوائر صنع القرار في أمريكا. وحاد سبتمبر وقع في ٢٠٠١ وهي فترة كافية لكي يتم ترتيب الأجهزة ووضع الخطوط العريضة ورسم السياسات. أي أن البرامج والخطط معدة سلفاً وفي المقابل فإنه من السذاجة والسطحية استبعاد أي تأثير لحادث سبتمبر على صراع الحضارات ولكن من المنطقي أن يعطيها قوة دفع هائلة ويعدها بكم كبير من التفاعلات والتوترات دون أن يكون هذا الصراع مرتبط بحادث سبتمبر ارتباط المنشأ أو المركز. وبعبارة أخرى يمكن القول أن ١١ سبتمبر ليس نقطة الأصل لصراع الحضارات ولكنه محرك إضافي شديد القوة لهذا الصراع.

صراع الحضارات – رؤية مستقبلية

من ناحية المستقبل، فنحن نتفق مع البروفسير صاموئيل هانتجتون صاحب الفكرة في توقعه بتطور صراع الحضارات خلال العقدين الأول والثاني من القرن الواحد والعشرين، وهو ما يبدو الآن جلياً وواضحاً للعيان على الساحة العالمية المترامية الأطراف. ولكننا نختلف معه في إهماله المتعمد للقضية الفلسطينية كأحدى بؤر الصراع الحضاري الشامل. والتي سوف تؤثر متوالية الأحداث فيها عددياً أو هندسياً على مستقبل صراع الحضارات. ففي قضية العرب والمسلمين المركزية والتي تمس بشكل مباشر الضلع الثالث في مثلث المقدسات الإسلامية. ونحن نعتقد أن إهمال وتجاهل صاموئيل هانتجتون للقضية الفلسطينية ليس ناتجاً عن نقص في ثقافته ولكن لأنه يرى أن هذه المسألة محسومة من واقع رؤيته الأيدلوجية. بالإضافة إلى ذلك تأتي العراق وأفغانستان بجوار فلسطين كمحاور أساسية ونقاط ارتكاز لصراع الحضارات. وسوف تؤثر حركة المقاومة المسلحة في هذه المواطن الثلاث

سواء سلباً وإيجابًا على مستقبل صراع الحضارات. ومن الخطأ بل ومن الصعب أيضاً إعطاء أحكام مسبقة عما ستؤول إليه الأحداث في هذه المواطن. بالنسبة للعراق من الممكن جداً أن تتضرر المقاومة ويتسع مداها كرد فعل طبيعي وانتقامي للحرب القذرة والهجمات الوحشية التي يقوم بها الجيش الأمريكي في الفلوجة وبالتالي تتحول العراق إلى فيتنام عربية ومستنقع للولايات المتحدة. ولكن في المقابل فالتطور يمكن أن يكون سلبياً فإن تعدد الطوائف والمذاهب في العراق بين شيعة وأكراد وسنة والتباين الحاد في المواقف لكل طائفة. فالأكراد في الصف الأمريكي والشيعة بحكم المرجعية الدينية سلبيين أو مسالمين باستثناء تيار الصدر الذي تم ترويضه وتبقى المقاومة العنيفة من جانب السنة والتي «يمكن كسر إرادتها مع وصول درجة القمع العسكري إلى حدها الأقصى. ويبقى أخيراً أن القضية بالنسبة للولايات المتحدة هي حساب كبير للأرباح والخسائر بلغة المحاسبين. فإذا زادت الأرباح عن الخسائر لن تخرج الولايات المتحدة أبداً والعكس هنا أن تخرج أمريكا مهزومة وعليه يتوقع المحللين أن تستمر مشكلة العراق مستعصية لمدة ١٠ سنوات قادمة. بالنسبة لأفغانستان الموقف أشد غموضاً نتيجة بعد المسافات والتعتيم الإعلامي الأمريكي. توجد مقاومة ولكنها محدودة التأثير ومن الصعب إعطاء أحكام مسبقة أو قطعية عن مستقبل الحالة هناك ولكن يمكن ملاحظة اختلاف في أفغانستان في حالتين، الحالة الأمريكية عن الحالة السوفيتية. وفي الحالة السوفيتية كانت الحرب ضروس والحركة الجهادية فوارة وعاتية بعوامل ذاتية وبمؤثرات خارجية منها الدعم الهائل الذي تلقته المقاومة الأفغانية إقليمياً ودولياً من باكستان والولايات المتحدة نكاية في السوفييت ومن الدول العربية والإسلامية بضوء أخضر أمريكي. ولكن في الحالة الأمريكية الأخيرة. المقاومة محاصرة في مناطق محدودة في الكهوف والجبار وفقدت الظهير الباكستاني الذي صار عدواً لدوداً. بالإضافة إلى

تجفيف المنابع من أي دعم مالي أو عسكري. والوقوع تحت ضغط هائل بفعل الحملة الدولية ضد الإرهاب ولكن كل هذا يمكن أن يصلح تفسيراً للكمون الحالي أو الحركة المحدودة ولكن لا ينفي إمكانية النشاط والتطوير مستقبلاً خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار طبيعة الشعب الأفغاني وتاريخه وشموخه العقائدي. وأيضاً لا ننسى عيوبه الاجتماعية من القبلية إلى أمراء الحرب إلى بارونات المخدرات. هذا من ناحية محاور الارتكاز للصدام المباشر. ولكن من الناحية الفكرية يتفق أهل العلم والفكر الصحيح، على أن الحرب ضد الله تجارة خاسرة، لذلك على المدى الطويل تكون القضية محسومة من الناحية العقدية. خصوصاً مع ارتفاع وتيرة المظالم وسفك الدماء مما يستدعي تدخلاً إلهياً وجريان للسنن الكونية التي بينها القرآن الكريم.

أما من ناحية الفكر السياسي، فقد تنبأ المؤرخ الكبير أرنولد توينبي بأن زمن الهيمنة الأمريكية قصيرة ولن يتعدى خمسين عاماً. أما المؤرخ الأمريكي بول كيندي في كتابه «صعود وهبوط القوى العظمى» فقد تنبأ بتراجع وانهيار القوة الأمريكية نتيجة التمدد الاستراتيجي وازدياد النفقات والأعباء العسكرية والإستراتيجية بشكل يفوق الإمكانيات والقدرات المتاحة، ورغم أن بول كيندي ومدرسته، اختلف معها البعض مثل زيجينو برجنسكي- مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق والأستاذ الحالي بجامعة كولومبيا وكذلك «ألفريد توفل» صاحب الكتاب الشهير «المواجهة الثالثة» والذي يرى أن الولايات المتحدة لن تنهار وأن الصراع الحقيقي للحضارات ليس بين الإسلام والغرب ولكن بين الموجات الحضارية الثلاث الزراعية ثم الصناعية ثم موجة ما بعد الصناعة أو ما بعد الحداثة أي صراع بين حضارة جديدة وحضارة قديمة. ومهما يكن من أمر هذه الرؤى والاختلافات تبقى وجهة نظر بول كيندي لها قيمتها ووجاهتها، وهي جديرة بالتأمل والنظر.

أما الكتاب الأكثر أهمية لنفس المفكر «بول كيندي» فهو كتاب «الإعداد للقرن

الواحد والعشرين». وهو عبارة عن دراسة موسوعية شاملة عن القرن الجديد. ولكن ما يهمنا هو أنه خصص فصلاً كاملاً عن الحضارة الإسلامية، وتحدث عنها بموضوعية، وروح علمية منصفة يحمد عليها. وقدم توصيفاً دقيقاً لنقاط القوة والضعف في المجتمعات الإسلامية، من حيث تخلف التعليم وعدم المواءمة بينه وبين احتياجات المجتمع، وكذلك غياب مناهج حكم توافقية في غالبية البلدان الإسلامية. وأوضح أيضاً أن أبرز معضلات العالم الإسلامي هي القضية الفلسطينية ومشاكل الحدود والأقليات. ورفض اتهام العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية بأبدية التخلف لأسباب طبيعية ثابتة فقال بالنص: «أن الإسلام قبل النهضة الأوروبية، قاد العالم في الرياضيات وعلوم رسم الخرائط والطب والعديد من وجوه العلم والصناعة، كما ضم هذا العالم مكتبات وجامعات ومراكز، في وقت لم تكن اليابان وأمريكا تمتلك شيئاً من هذا، ولم تكن أوروبا تمتلك إلا القليل. أهم ما ذكره «بول كيندي» في هذا الفصل، وكان موفقاً فيه لدرجة كبيرة هو قوله: «أن العالم الإسلامي يقتصر إلى ثقافة المشروع» بمعنى عدم وجود رؤية استراتيجية تمكنه من تحديد أهدافه بدقة ووسائل وأدوات الوصول لهذه الأهداف عن طريق التربية كأداة للتغيير الاجتماعي، وتحريك المؤسسات الاقتصادية، ووسائل التطوير الحضاري. وقد أغنانا «بول كنيدي» عن الكثير مما نود أن نقوله، فقد أشاد بالحضارة الإسلامية وإمكانية فوزها بالسباق الحضاري في القرن الواحد والعشرين. والحق ما شهدت به الأعداء.

وأخيراً، فإن مأساة المسلمين الحالية هي أزمة الإنسان المنتمي للإسلام ، وليست في الإسلام كرسالة. لذلك قال شوقي مخاطباً النبي ﷺ قائلاً:

أتباعك بين أيديهم نوران قرآن وسنة فما بالهم في حالك الظلمات

ورغم كل المآسي التي تصب على رؤوس المسلمين من حقنا أن نحلم بأن تشرق

شمس الحضارة الإسلامية من جديد، ويتغير الواقع.

وأكدت أحداث ١١ سبتمبر وما تبعها من تداعيات حقيقة طالما نبهت إليها أصوات من الجانبين هي ضرورة بذل مزيد من الجهد لإعادة صياغة هذه العلاقة دون ركون إلى المقولات الجاهزة ، والتفسيرات التآمرية المختزلة من الجانبين، فرغم أن الثقافة الإسلامية تأمر كل مسلم أن يعدل حتى مع أعدائه فإن خطاب العداء الكاسح للغرب انتقل إلى بعض الأدبيات الفكرية والدعوية الإسلامية كرد فعل لخطاب العداء الغربي وهو رد كان يجب ألا ينجر بعض منا إليه حتى لو أظهر الآخرون العداء.

فكما أن الإسلام لا يجوز اختصاره في مفاهيم مشوهة قاصرة كذلك الغرب فهو ليس كياناً واحدًا، بل عالم مركب فيه المتحيزون والمنصفون، وفيه المضللون الذين لا يجدون مصدرًا يمكنهم عن طريقه تكوين صورة أكثر اقتراباً من الحقيقة عن الإسلام والمسلمين كذلك يجب التفرقة بين الشعوب والحكومات وبين المؤسسات الإعلامية ، والأوساط الأكاديمية.

ولعل ما شهدته الدعوة الإسلامية من نجاحات عقب هذه الأحداث متمثلة في دخول آلاف الأمريكيين الإسلام تؤكد أن العداء المتصور «بضاعة تروج وليس موقفاً مبدئيًا كاسحًا يلتزم به كل غربي أو كل أمريكي، وإذا أخذنا علم الاستشراق كمثال طالما وضع في إطار تآمري بوصفه عملاً عدائياً منظماً استهدف تشويه صورة ثقافتنا، وجدنا التعميم مخلاً إلى حد بعيد فرغم أن صلات وثيقة ربطت بين كثير من المستشرقين وبين مؤسسات سياسية وأمنية غربية بعضها استخدم المستشرقون لخدمة أهداف استعمارية إلا أن الظاهرة هذه لم تخلو من إيجابيات كثيرة يصر البعض على إهدارها.

وأقر واحد من أهم الباحثين الإسلاميين المدققين في النصف الثاني من القرن العشرين هو الدكتور حسين مؤنس صاحب العديد من الأعمال الموسوعية في حقلي التاريخ والجغرافيا. إذ يقول في مقدمة الطبعة الأولى من مؤلفه الضخم وتاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ما يلي: [كلامنا عن العلوم عند العرب كثير وحديثنا عن فضلهم على الحضارة العالمية أكثر، ولكننا إذا استثنينا قلائل منا صفروا الغاية إلى التأليف في العلوم عند العرب ، وخدموا هذا المطلب بالبحث والتأليف من أمثال: أحمد عيسى، ومصطفى نظيف، ومصطفى الشهابي ونيفين أحمد ، وزكي وليدي، وبهجة الأثري، وفدوى حافظ طوقان وغيرهم من أجلاء العلماء. وجدنا أن معظم ما تفخر به في هذا المجال إنما هو من كشوف غيرنا من أمثال «جورج روشكا» و«هانزفون مجيبك» وجورج سارتون وكارلو فللينو، وبول كراوس، وألدو مبيلي ، وهاينريس سوتر، وماكس مايرهوف، وكونراد ميللر، وخوان بيرنيس، وغيرهم كثيرون جدًّا ممن أنفقوا- وينفقون- العمر في دراسة المخطوطات العربية في العلوم وحل رموزها وإثبات فضل العرب وأهل الإسلام على هذا العلم أو ذلك بالحجة والبرهان الساطع.

واقتصار اهتمامنا على الدوائر التي تضع صورة «الإسلام العدو» في الغرب من المؤكد ما يبرر هذا العداء من المسلمين للغرب ..

أولاً: لأن الغرب هو الذي بدأنا بالعدوان السافر في الحروب الصليبية وما بعدها من موجات الاستعمار العسكري التي توالت لأكثر من قرنين.

ثانياً: هجوم من جانب كثير من المستشرقين على الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة، الأمر الذي جعل تاريخ العلاقة بين الجانبين منذ الحروب الصليبية يحكمه العداء، غير أن ثمة محاولات لإعادة هذه العلاقة الشائكة على نحو مختلف ينبغي ألا تهمل

وسط صخب الخطاب التحريضي.

ومن النماذج الحديثة لذلك أن الكاتب الأمريكي المعروف «جون إسبوزيتو» أصدر في عام ٢٠٠٢ كتابًا يحمل عنوان «الحرب غير المقدسة» -الإرهاب باسم الإسلام، طرح فيه تصوره للسياق الصحيح الذي ينبغي أن توضع فيه أحداث الحادي عشر من سبتمبر، محذرًا من أن صدى مضاعفات الماضي مازال يتفاعل في النفس المسلمة، فلقد أحدثت حركة الاستعمار الأوروبي- حسب رأي إسبوزيتو- جرحًا غائرًا في المسلمين في كل مكان ، وكان الإسلام بالنسبة للقريبين «ديانة السيف والجهاد أو الحرب المقدسة» بينما كانت المسيحية، بالنسبة للمسلمين «دين- الحروب الصليبية وطموحات الهيمنة».

كذلك قدم إسبوزيتو في كتابه عروضًا موجزة عن حركات إسلامية مثل الأخوان المسلمين في مصر، وحماس والجهاد الإسلامي في فلسطين، وحزب الله في لبنان، وجبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر، وهو يشير إلى أن عدداً من دول الشرق الأوسط تشهد حاليًا انبثاق ما يصفه بأنه- تيار إسلامي غير عنيف- فعال سياسيًا لا يرفض الديمقراطية وليس مناهضاً للغرب.

والدراسات التي تحاول إعادة بناء صورة الإسلام في الذهنية الغربية لا تكاد تنقطع، وإن كانت لا تلقى الاهتمام الكافي، وإحدى أهم هذه الدراسات صدرت بالألمانية وعنوانها «الإسلام العدو: يبين الحقيقة والوهم» وفيه تحذر الكاتبة الألمانية «أندريا لويج» من ظاهرة من تطلق عليهم «الخبراء الوهميين» أمثال- جيرهارد كونستلمان« وبيتر شول لاتور- اللذين سيطروا على أجهزة الإعلام لسنوات دون منازع بوصفهما خبيرين في شئون الشرق الأوسط، ولا شك في أن سيطرة ما يسمى بـ «ثقافة الصورة» والغياب شبه التام لقوى عربية أو إسلامية تقوم بجهد إعلامي

مقابل، يمنح هذه البضاعة المسمومة فرصة ذهبية لأن تروج على أوسع نطاق.

ورغم الانتشار الكاسح لهذه المقولات لم يعد العالم العربي أن يجد أصواتاً تزعجها ظاهرة الخبراء الوهميين فخاضت ضدها حروباً لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً- للأسف- حتى الآن، وبدلاً من التحليل العلمي الجاد رسمت للعالم الإسلامي صورة وهمية من خلال تضخم المخاوف النفسية والعنصرية، ومن هنا وجه المستشرقون في جامعة «هامبورج» الاتهام لبعض خبراء الإعلام، بأنهم يعملون بأساليب غير شريفة على توسيع الفجوة بين الثقافتين الشرقية والغربية وتعميقها بالإشارة دائماً باستحالة الحوار بينهما.

ولا تقتصر هذه الحالة أو الظاهرة على ألمانيا، ففي فرنسا هناك مثلاً «ألكسندر دل» فهو يعد جزءاً ممن تسميهم صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية وحلقة الخبراء السحرية المدعوين في شكل دوري إلى شاشات التلفزة، وبخاصة منذ الحادي عشر من سبتمبر، فهو كنموذج لهؤلاء الخبراء، لا يحب التعقيد ويرى أن العالم يمكن تحليله بسهولة، ومن تحليلاته الواسعة الانتشار أن مبدأ رفض الحكم الكافر هو الذي يفسر غالبية النزاعات بين المسلمين والكفار في كشمير والسودان وأرمينيا والشيشان وحتى في كوسوفا ومقدونيا حيث أصبح المسلمون يشكلون الغالبية السكانية وبطبيعة الحال تحدث مثل هذه التفسيرات أثراً خطيراً في الغرب الذي يحتفظ للحروب الدينية بأسوأ الذكريات ويربط بينها وبين مفاهيم سلبية عديدة.

وتكشف أندريا لوبيج عن جهل فاضح بالإسلام والثقافة الإسلامية بين المتخصصين، تنقل عن اثنين من المتخصصين الألمان هما أرمجارد وبين ماليزفيير قولها: إنه لمن التناقض الغريب والمدهش حقاً بين عدم معرفتنا بالإسلام والثقافة الإسلامية وبين ثقتنا الشديدة في إطلاق الأحكام عليها، ولم يحدث مرة أن استنكر

هذا الجهل ولو مرة واحدة، بل إن النقد والاتهام يوجه باستمرار إلى تلك الثقافة دون أدنى حرج.

وفي معظم الحوارات التي تدور عن الإسلام تتكرر دوماً عبارة «إنني لا أعرف شيئاً عن الإسلام ولكن .. وتعلن لوبيج قائلة: «إننا لا نفيق عند» لا أعرف:« هذه لأنها ببساطة تسمح لنا ببناء عالم آخر للإسلام حتى لو لم يتسق هذا لبناء مع الواقع، وهو فعلاً كذلك، فهو مطلوب لفصل «نحن» عن «الآخر» والداخل عن الخارج فعلاً لا ينمحي لكي يؤمن حدود الهوية الغربية وحصنها. وهنا تظهر الكلمة السحرية ذات الحروف الخمسة «إسلام فتنشر الفزع- بل أن أحد أساتذة العلوم السياسية النمساويين يحذر من أن إنسانية الغرب مهددة أكثر من أمنه بسبب العداء للآخر.

ولا تعني مثل هذه الحقائق أن ميراث العداء ذهب إلى غير رجعة أو أن العلاقات القائمة تخلو من عوامل التوتر، فمازالت العلاقات بين الشمال والجنوب عموماً تفتقر إلى التوازن والعدالة وتغلب عليها إرادة الهيمنة الغربية، وما تعانيه ثقافات الجنوب من هذا الواقع تعاني الثقافة الإسلامية منه النصيب الأكبر، ويشكل الموقف الغربي المنحاز للكيان الصهيوني العقبة الأكبر في طريق قيام علاقات إيجابية بين الطرفين.

كما أن تغير صورة الإسلام والمسلمين في الغرب على نحو إيجابي مرهون بعوامل عديدة أولها ضرورة تحديد منابع السيل الهادر من الصورة السلبية وبذل جهد لتصحيحها بالوسائل التي تناسب المجتمعات الغربية وباللغة التي يفهمها المواطن الغربي كما أن إعادة بناء الصورة مرتبط بشكل مباشر بإعادة بناء واقع العالم الإسلامي نفسه، وما يلفت النظر أن كثيراً من الغربيين الذي اعتنقوا الإسلام ورأوا

في قيمه طريقًا للنجاة هالهم حالة التخلف التي يعيشها العالم الإسلامي. وبالتالي اضمحلال قدرتنا على بناء عالم أفضل تأسيساً على قيم الإسلام وثقافته.

وقد كثر الحديث في السنوات الأخيرة من القرن العشرين عن نهاية الأيديولوجيات ونهاية التاريخ التي طرحها الأمريكي من أصل ياباني «فوكوياما» والتي حاول من خلالها أن يستثمر سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية ، وانهيار نموذج معين للبناء الاشتراكي لكي يؤكد بذلك إننا نشهد نهاية التاريخ ثم سقوط حائط برلين الذي يعد علامة العصر وبداية التحول الكبير في مسار حركة التاريخ.

بدأت الحملة ضد الإسلام والمسلمين في الغرب أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، حيث اندلعت حملة واسعة من العدوان والشك والتحريض ضد جميع العرب والمسلمين، كما ارتفعت في الغرب أصوات كثيرة تدعي أن الحضارة العربية والإسلامية تحمل في نسيجها بذور العنف والإرهاب. وأنها تمثل بذلك الخصم الأكبر والنقيض الكامل لكل ما هو غربي ، بل لكل ما هو إنساني وحضاري.

إن مكمن الخطورة في هذا التوجه أنه يصدر عن ساسة كبار مثل تاتشر ، ومفكرين مثل هنتجتون وفوكوياما ، ويناقض الثوابت الإسلامية التي تتمثل في التعايش الإيجابي وفي ثقافة الحوار والسلام وتجنب الصراع والفتن والحروب الظالمة وغيرها من مبادئ يقررها الإسلام أصلاً ومرتكزاً للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

أما ما تردد الأوساط الغربية ضد الإسلام، فهو فهم مغلوط ، وفكر مدَمر يهدم قيم الإسلام ، ومثله العليا في الحياة، فإن الإسلام دين حضاري رفع من قيمة الإنسان.

لقد لخص الإسلام حضارته الإنسانية في التعايش بين البشر على اختلاف أجناسهم، وهو الإسلام الذي نشر حضارته في كل أنحاء العالم، وفي غمرة هذا الإحساس بالنجاح للإسلام سياسيًّاوعسكريًّا في تحرير آسيا وشمال إفريقيا، أى الغرب الغارق في ظلامه أن الفتوحات الإسلامية ضربة قاصمة له، ولعل ذلك ما يفسر التحامل على الإسلام من مؤرخي الغرب في الماضي والحاضر.

الذين نظروا إلى حضارات الشرق المزدهرة في مصر القديمة وبابل وآشور وفينيقيا، بازدراء وتعالٍ، واعتبروا أن الإسلام نسخة متحولة من الديانات السابقة والمسلمين كفرة- برابرة- ولا تزال لفظة «مور» تطلق على المسلمين منذ أيام الأندلس حتى الآن، وقد عمقت الحروب الصليبية هذه النظرة إلى الإسلام والمسلمين.

ومن كتابات الأوروبيين السابقين والتالين لتلك الحروب نعلم إلى أي مدى كان الجهل بالإسلام وقيمه ـ ورسالته العالمية ، فنجد بعض الكتاب في الغرب يصفون الإسلام والمسلمين أوصافًا شائنة وذميمة فهذا «ساوزن» يرى في الرسول ﷺ ساحرًا هدم الكنيسة في إفريقيا والشرق.

لكن رؤية الشرق للإسلام من خلال كتاب مثل «فولتير» و«أبيلارد واليزابانتي، والأخير أسس مدرسة كرست لدراسة أفكار «ابن رشد» وهؤلاء نظروا إلى الإسلام باعتباره ثورة تنطوي على مضامين أخلاقية واجتماعية نبيلة، ومع هذه البداية التي انطوت عليها هذه الآراء نحو الإسلام ودوره في الدعوة للعلاقات الإنسانية، انتكس الغرب من جديد بعد أن تخلى عن حروبه الصليبية لمصلحة التوسع الاستعماري مؤسساً «الاستشراق» ليكون من أهله مع تقديم أبحاث علمية عن الإسلام للساسة الأوروبيين والنظرة إلى التراث الإسلامي نظرة مشوهة تكرس

العرقية والطائفية ، والإقليمية.

وكان من هؤلاء المستشرقين «ليوتي» و«تيراس» وليس غريبًا أن يكونوا جميعًا من رجال إدارة المستعمرات، فقد انطلقوا من مفاهيم «الأورية» ومركز الحضارة، وعقم العقلية السامية وأشاعوا أن الحضارة الإسلامية محض محاكاة ونقل، حتى الفقه الإسلامي قالوا عنه تقليد غير معمق للقانون الروماني، وأن الفن الإسلامي مجرد زخارف ليس إلا.

لقد لخص الإسلام حضارته الإنسانية في حتمية التعايش بين البشر على اختلاف أجناسهم. وتعدد أممهم، وتنوع أديانهم، ودعا الجميع إلى الالتقاء على كلمة سواء مع الحفاظ على الخصوصية والتسليم بالتعددية وقبول الآخر وغرس في أتباعه ثقافة التسامح مع الآخرين من الأعداء والمخالفين له، واستقامة لشريعة الإسلام على الجهاد لا يكون إلا وسيلة للدفاع عن الدين والوطن ومقدسات الأمة ولم تقم مطلقاً على أن العداء أو الصراع يكون لمجرد الاختلاف في الدين.

لقد وضح لنا أن هناك غزوًا فكريًا مقصودًا ، ويعمل لإذابة الشعوب وسلخها عن عقائدها ومذاهبها وحضاراتها لتصبح مسخاً تابعاً لغيره يؤمر فيطيع، ولقد عمل الغزو الفكري على تضليل المجتمعات الإنسانية وخداعها والتمويه عليها وقلب الحقائق وتشويهها عن طريق زخرفة القول، وكم عانى الإنسان والشعوب من أولئك الذين يصنعون الغزو الفكري ويصدرونه في موجات تقتحم حياتنا وفكرنا.

ولقد كان للغزو الفكري، في كل جيل، وفي كل عصر دوره التخريبي في حياة الناس. إلا أن البشرية لم تشهد مرحلة من مراحل حياتناً وضعاً كان فيه للغزو الفكري خبراء ومتفلسفون وأجهزة ومؤسسات كعصرنا الحاضر هذا، الذي اتخذ فيه الغزو الفكري صيغة الفلسفة والنظرية والمبدأ الذي يعتنقه الأتباع، ويدافعون

عنه وينقادون إليه.

وقضية الغزو الفكري أصبحت اليوم أشد القضايا خطراً، وتبدو ظواهر الغزو المدمر في قلوب وعقول كثيرة من المثقفين في هذا العصر واضحة بينة، والسلاح الذي يستعمله الغزو الفكري مدمر، يؤثر في الأمم والمجتمعات أكثر مما يؤثر المدفع والصاروخ والطائرة.

لا شك أن الاستشراق يشكل الجذور الحقيقية التي تقدم المدد للتنصير والاستعمار، والعمالة الثقافية ويغذي عملية الصراع الفكري ويشكل المناخ الملائم لفرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي والعربي، فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمد المنصرين والمستعمرين وأدوات الغزو الفكري بالمواد التي يسوقونها للعالم الإسلامي والعربي لتحطيم عقيدته وتخريب أفكاره والقضاء على شخصيته الحضارية التاريخية.

ففي القارة الإفريقية وحدها عشرة آلاف مركز للبحوث والدراسات، القسم الكبير منها متخصص في شؤون العالم العربي والإسلامي، ووظيفة هذه المراكز تتبع وترصد كل ما يجري في العالم ومن ثم دراسته وتحليله، مقارنة مع أصوله التراثية التاريخية، ومنابعه العقدية، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار لتبني على أساسه الخطط ، وتوضع الإستراتيجيات الثقافية والسياسية وتحدد وسائل التنفيذ.

إن الخطاب السياسي في المجتمعات الصناعية، وبالرغم من البلاغة اللفظية المتعلقة باحترام التنوع الثقافي كحق أساسي من حقوق الإنسان لا يزال يحمل الكثير من العداء للقيم الثقافية الدينية في العالم الثالث، فبعد انهيار المعسكرَ الشيوعي، نرى اهتماماً متزايداً في الشمال من أجل خلق عدو جديد للقيم الرأسمالية وهو الإسلام، وللأسف الشديد يجري الترويج لهذه الفكرة على الصعيدين الوطني والدولي.

إن تصريحات الأمين العام لحلف الأطلسي في هذا الخصوص تعبر عن هذا التوجه العلني في أعلى مستويات القرار في الدول الصناعية حين قال: (إن الأصولية الإسلامية هي في حد أدنى تماثل خطر التهديد الشيوعي الذي واجه الغرب أثناء الحرب الباردة).

كما يراجع في هذا الخصوص أيضًا .. صموئيل كنتجتون، الأستاذ في جامعة هارفارد في مقالته الشهيرة عن صراع الحضارات- حيث يعتبر أن للإسلام حدودًا دموية دائمة، فالإسلام يرى نفسه محاربًا في الغرب ، ومحاصراً من الشرق باستمرار، وأن العالم كله ضده، وعلى هذا الأساس فهو في رأي صاحب المقال في حاجة اقتتال دائم لم تقف عبر التاريخ.

ورغم ذلك لابد أن نعود مع الأطروحات التي طرحها النظام العالمي الجديد، أو ما يسمى «بصراع الحضارات» الذي أطلقه «هنتجتون» والقائم على أن النزاعات الدولية سواء منها الإقليمية أو العالمية ستكون في المستقبل على شكل «صدام الحضارات» أي هي استمرار للحروب الصليبية والعداء بين الشرق والغرب، ومحاربة الإسلام والمسلمين في أوروبا والغرب عامة، عدا محاولة تفكيك الروابط الإسلامية والعربية في منطقة الشرق الأوسط، وخاصة في عالمنا الغربي الذي احتوى هذه الرسالة، ولم يكن ذلك على شكل «صدام الحضارات» وليس على شكل «صراع الأيديولوجيات» والتأكيد والإلحاح في الخاتمة على ضرورة أن يتخذ الغرب جميع التدابير على المستوى القريب كما على المستوى البعيد للدفاع عن مركزه ومصالحه، كل هذا فجر سلسلة من الأزمات والقضايا الجديدة لتضاف في الكم المتراكم من الأزمات وبؤر التوتر التي كان يعاني منها العام ولا يزال، ودخل العالم في دوامة من الأحداث وصلت إلى مرحلة وصفها بأنها «عصر الأزمة» أو عصر

الصراع الخطير .. الإسلام في الواجهة.

يرى الدكتور محمد عابد الجابري، أن خطورة كتاب هنتجتون تكمن ما بين «المقدمة» و«النتيجة» ويشعل كل منهما بضعة أسطر لا غير، أما بؤرة الموضوع- بالتعبير الأمريكي- فهو «الإسلام» بالدرجة الأولى. ذلك أن صاحب المقالة يركز على الإسلام سواء في تحليله «التاريخي» أو في عرضه لوقائع الحاضر، والإسلام الآن ومنذ عقدين من السنين أصبح الواجهة ، فهو الشغل الشاغل في الغرب ، بل العدو الأول، فلماذا الخوف من الإسلام؟ وهل أصبح الخوف سمة العصر الحديث؟.. يعلل الدكتور «المهدي المنجرة» ذلك بانعدام الثقة في الذات الغربية، وزعزعة الثقة في النفس، فانتاب من جراء ذلك الغرب خوف وارتباك بين وفي رأيي لفهم هذا العنف الغربي ، إصراره على محاولة غزوه الحضاري لباقي بلدان العالم، ولكي نفهم جيداً إعلامه باعتباره يكشف عما بداخله، ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الشعور بالخوف الذي يسيطر عليه، لقد ظهرت في الغرب عشرات من الكتب بعناوين فيها الخوف لدرجة أن الكلمة انتقلت إلى الصحف والمجلات والشاشات المرئية ، وأمواج الإذاعات ودائماً تصادفنا كلمة «الخوف» الخوف من ماذا؟ الخوف من الديمقراطية، من الإسلام، من اليابان، من الحضارات الأخرى.

لقد صارت الحضارة الغربية «حضارة الخوف» والحضارة التي يدخلها الخوف بهذا الهوس الشديد والمبني بالخصوص-على انعدام الثقة في النفس، تدخل في مراحل اندفاعية، ويبقى على الآخرين أن يؤدوا ثمن هذا الاندفاع حتى وجود توازن جديد في العالم.

إن قوة الإعلام الفاعلة التي أحسن الغرب استخدامها للتأثير والتوجيه في الأفكار والأحداث حولت العالم إلى بيت صغير تعرف فيه الشاذة والفاذة،

وأصبحت الصورة المعاصرة عن «الإسلام» ترسم في أذهان الغربيين عن عدة مكونات أعمقها العوامل التاريخية، فالمسيحية التي تمثل العالم «الغربي» تشتبك لأكثر من ألفي عام مع العالم «الإسلامي»، منذ فتح شبه الجزيرة الإيبرية في القرن السابع الميلادي، مروراً بالحرب الصليبية والصراع الطويل مع السلطة العثمانية في القرن الخامس عشر إلى انهيار «الامبراطورية» التي كانت تمثل آخر مجد إسلامي عام ١٩١٨ .

كما كشفت انهيار الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية السلافية والبلقان بدءاً من عام ١٩٨٩ . عن مدى عمق المشاعر المعادية للأتراك «المسلمين» التي كان ولا يزال يستغلها أي راغب في حشد التأييد الشعبي لآرائه أو حزبه واستمداد الشرعية لمنظماته في تلك الدول (صراع بين الأرثوذكس والمسلمين في البوسنة، والتوتر بين الصرب والألبان، وبين البلغار والأقلية التركية، وبين الأرمن والأذربيجانيين)، وتمتد آفاق هذا التفكير إلى اعتبار دول أوروبا الغربية مخاوفها حيال «التهديد الإسلامي» عموماً، بما في ذلك مسألة الهجرة إليها شكلاً من أشكال البديل الأيديولوجي الذي حل محل الحرب الباردة، فسارع الغرب إلى تنصيب الإسلام والعالم الإسلامي خصماً له. وتنامى التيار العنصري في الغرب، حيث شهد العقد الأخير من القرن العشرين تنامي التيارات اليمينية في أوروبا بسبب تزايد الحضور الإسلامي في الغرب، وسجلت هذه التيارات اليمينية حضوراً يبعث على القلق، فظهر على سبيل المثال، فلاميش يلوك في بلجيكا .. والحزب القومي البريطاني .. وحزب الشعب الدانماركي .. والجبهة الوطنية الفرنسية، ورابطة الشمال الإيطالي وحزب الشعب السويسري ولعل العديد من الحكومات الأوروبية اليوم تضم تيارات يمينية ضماناً للأغلبية البرلمانية على الرغم من العداء العلني الذي تبديه هذه التيارات للإسلام والمسلمين.

وقد ارتفعت العديد من الأصوات في أوروبا تطالب بحماية المصالح الأوروبية لتمرير خطابها المناوئ للجهد الإسلامي، فبدأت الحملة للحد من الهجرة، والمطالبة بسن قوانين تحظر الحجاب في المدارس والجامعات والمؤسسات العامة، وتشديد قوانين اللجوء، وقد صرح المستشرق برنارد لويس لصحيفة «دي فيلت» الألمانية بأن أوروبا ستكون جزءاً من «المغرب العربي» وليس العكس لماذا؟ لأن التوجهات الحالية تظهر أن أوروبا ستشهد أغلبية مسلمة في نهاية القرن الواحد والعشرين على أقصى تقدير، أو فضلاً عن الأعداد المتزايدة من المهاجرين العرب والمسلمين، فإن الأوروبيين يتأخرون في سن الزواج، ولا ينجبون سوى عدد قليل من الأطفال بعكس مسلمي أوروبا الذين يتزوجون في سن مبكرة وينجبون عدداً أكبر من الأطفال، أما جريدة «لوموند» الفرنسية فقد أنجزت ملحقاً خاصاً عن الإسلام في ١٣/ ١٠/ ١٩٩٤ ضم مجموعة من المقالات لأسماء فرنسية، إضافة إلى استطلاع للرأي العام نشرت نتائجه حيث ورد في الاستطلاع : أن الإسلام يعتبر الدين الثاني في فرنسا «لكنه دين غير محبوب» و«محتقر بالنسبة للفرنسيين» لأنه يرفض كل ما هو غربي ويميل بشكل كبير إلى التعصب.

وقد ركزت الصحيفة في كل المقالات التي ضمنها الملحق الإسلامي على العناصر التي تضاعف من كراهية الإنسان الغربي للإسلام والمسلم، فقد تحدثت عن القهر الذي تعاني منه المرأة في بعض بلدان الشرق، وقطع يد السارق، والانتصار لتعدد الزوجات واستفراد الرجل بالعصمة، وجلد الزاني كأنه لا يوجد في الإسلام إلى هذه الأمور .. بينما أغفلت عن تعمد كل حديث عن النبل والتسامح والإخاء والعدالة، وهو ما أكدته المستشرقة الفرنسية «آنا ماري ديل كاجر» المتخصصة في الفقه الإسلامي تقول : «إن الغرب يكره الإسلام لأنه يجهله، باعتبار أن الإنسان عدو ما يجهل، فكلمة« مسلم »لا تستدعي في ذهن الغرب للأسف

الشديد سوى الجهل والصحراء وحياة البداوة» أما صورة «نبي الإسلام» فقد أشبعها الغربيون إساءة ويجب تصيح هذه الصورة ليس فقط لأنها صورة مغلوطة من أساسها ولكن أيضاً لأن الدين الإسلامي هو دين التسامح وعقيدته إنسانية شاملة، كما أنه يخاطب في الإنسان أقدس حاسة وهي العقل، فهو دين العقل والحرية ويحترم أهل الكتاب، إن الإسلام أسيء فهمه في الغرب بدرجة كبيرة تثير إزعاج المنصفين من أبناء الغرب أنفسهم، إن الاختلاف في اللون والدين وغيرها من البشر سنة إلهية يتوجب أن تكون بداية للتعارف والتلاقي، وليست سبباً للاضطهاد والتمييز المعنصري والتطرف القومي كما يشير القرآن الكريم إلى هذه المفاهيم الإنسانية الراقية في واحدة من آياته الحكيمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٢]، حتى معاداة الإسلام والمسلمين تعتبر الكتابات الغربية عن الإسلام المصدر الأهم لمعرفة صورة الإسلام والمسلمين في الغرب.

وتشمل هذه الكتابات ما تنشره المجلات والصحف من مقالات وبحوث، وما يصدر عن الكتاب الغربيين من مؤلفات ودراسات تتناول كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين سواء في مجال التعريف بشريعة الإسلام وأحكامه وعقائده وقيمه، أو في مجال التعريف بحياة المجتمعات الإسلامية الممتدة في المنطقة الجغرافية والتي يشكل المسلمون فيها الأكثرية، مما يطلق عليها البلاد الإسلامية، وهذه الكتابات كثيرة ومتنوعة أهمها ما تزخر به الموسوعات العلمية ودوائر المعارف التي تعتبر من أبرز المراجع التي يعتمد عليها الباحث المتخصص والقارئ العادي، ومن البديهي أن يرجع إليها «الإعلام» لمعرفة الكثير مما يريد معرفته عن الإسلام والمسلمين فساهم في نقل الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين جعلها ضمن اهتمامات الإنسان الغربي، فارتسمت للإنسان المسلم في ذهنه صورة فائقة السلبية، معالمها تتميز بصفات

سلوكية غير محببة. بحيث لا يستطيع المتتبع للأحداث السياسية في الغرب أن يغمض عينيه على تعامل وسائل الإعلام الغربية مع الأحداث ومحاولة تفسيرها من وجهة نظر محددة سلفاً، وتدل الدراسات العديدة على وجود تماثل كبير بين الصورة السيئة التي يقدمها خبراء الدراسات الشرقية والإسلامية في الدوائر العلمية والاستخباراتيه عن الإسلام والمسلمين والصورة السيئة التي تروج لها وسائل الإعلام الغربي.

وقد ذكر «إدوارد سعيد» أن نتائج دراساته تؤكد تطابق وجهات نظر الخبراء في الدراسات الشرقية والإسلامية الذين تستعين بهم الدوائر السياسية في الغرب، وبين الطريقة التي تعالج بها وسائل الإعلام الغربي أمور الشرق والإسلام، وقد أبرزت تلك الدراسات أن الفكرة المركزية التي يحملها الطرفان، الخبراء ووسائل الإعلام- هي أن الإسلام- يمثل تهديداً للغرب، وهذا واضح من نظرة «برجنسكي» عن «هلال الأزمات» إلى المستشرق« برنارد لويس »عن عودة الإسلام».

إن الإسلام- بالنسبة لهؤلاء- كما يقول إدوارد سعيد- يعني نهاية الحضارة الغربية باعتباره دينًا لا إنسانيًا وغير ديمقراطي ولا عقلاني»؛ ولذلك فإن الإسلام في وسائل الإعلام- يمثل تهديداً ينبعث من حركة ناهضة لا تحمل خطر العودة إلى القرون الوسطى فحسب بل وكذلك كما يقول «دانيال مونيهان» تدمير للنظام الديمقراطي في العالم الغربي.

ويرى إدوارد سعيد : أن هذه النظرة للإسلام تتفق مع التفكير الاستشراقي الذي رسخ الاعتقاد بأن «الإسلام لا يمثل منافساً رهيباً فحسب بالنسبة للغرب، بل إنه يمثل كذلك تحديًا متأخرًا للمسيحية» على أن هذا الذي تقوم به وسائل الإعلام الغبية من تشويه صورة الإسلام والمسلمين داخل المجتمعات الغربية لا

يمثل الوجه الوحيد للخطر، بل إن لهذا الخطر وجهاً آخر يتمثل في ترويج الإعلام الغربي لهذه الصورة المشوهة في أصقاع الأرض.

وقد أتاحت تركيبة النظام الإعلامي الغربي أن يحقق هذا الهدف. إن الإعلام الغربي اليوم يتمتع بقدرة كبيرة على السيطرة والهيمنة على المستوى الدولي أن «ثمانين في المائة» من تدفق الأنباء يصدر عن وكالات الأنباء الغربية الكبرى. إن الإحساس بخطورة «الإسلام» وهم ليس له ما يبرره حسب موازين المنطق، ومن المؤسف كما يقول الدكتور «محمد فاروق النبهان» «أن الغرب وهو الأقوى حضارياً وعسكرياً واقتصادياً لم يحرص على تصحيح هذه الصورة وبخاصة من خلال إعلامه القوى القادر على الإقناع، ولسنا بحاجة للتذكير بخطورة المواقف والتوجهات التي يتبناها الغرب على الصعيد السياسي والتي تحمل الكثير من الدلالات والمؤشرات على تبني الغرب لسياسة معادية للعالم الإسلامي مما يثير مشاعر التوتر في النفوس ويعمق الفجوة بين الإسلام والغرب، وينعكس ذلك بصفة مباشرة على الأوضاع الأمنية والاستقرار الاجتماعي خاصة بالنسبة للأقليات الإسلامية التي تعيش في البلدان الغربية، وعلى العموم فالحرب ضد الإسلام والمسلمين تتم بالكلمة والصورة والصوت وأحياناً بالكاريكاتير .. وكل واحد يساهم بقدر طاقته العدوانية والعنصرية مما يستلزم وجود حوار حضاري وديني وثقافي بين الإسلام والغرب. وبين الإسلام والمسيحية، غايته استكشاف كل فريق للفريق الآخر، واحترام كل طرف لعقيدة الطرف الآخر لأن تحقيق أمل البشرية يتم عبر تكامل الحضارة لا تصادمها.

أعداء الإسلام يرون في الإسلام خطراً كبيراً وتحدياً أكبر أمام الغرب، ولذلك كانت حصيلة تأمل نتيجة الدراسات الإعلامية التي تناولت صورة المسلمين في

الوسائل الأوروبية المقروءة والمسموعة والمرئية سلبية في أغلب الأحيان، بعض الأحداث المرتبطة بالمسلمين عموماً تزيد هذه الأحداث المتعلقة بالأقليات الإسلامية في القارة الأوروبية والآسيوية أو في بعض الدول العربية والإسلامية أكثر تعقيداً.

إنهم ينسبون للمسلمين التطرف والعنف والجهاد وتعدد الزوجات ونبذ العلمانية ورفض الاندماج. هذا ما يروجونه في وسائل إعلامهم، ففي إحدى القنوات الفضائية الفرنسية، تحدث مذيع خلال برنامج عن وضع المرأة في باكستان، وعن الشريعة الإسلامية التي تحرم على المرأة ولوج عالم الدراسة، وهي في البيت تبقى ألعوبة في يد الرجل، تباع مثلما تباع البهائم وغير ذلك من الأباطيل المشينة.

أما قضية الفتيات المحجبات والتي تناولتها مجلة «دير شبيجل» تحت عنوان فيه استفزاز بمشاعر المسلمين في فرنسا. اختزلت مجلة «الاكسبريس» موضوع الحجاب الإشكالي بعنوان «الحجاب المؤامرة» كيف يتسلل الإسلاميون؟ ويحتوي الموضوع على مفردات تثير الفزع الواضح لدى القارئ، كاتبة المقال تصف المحجبات بالإرهابيات.

تشويه مفهوم الجهاد في الإسلام في الإعلام الغربي، ومن ذلك تأكيد البعض على أن الإسلام هو دين قتل وتقتيل، وأصبح يكفي أن تتم الإشارة في أي مقال لمصطلح الجهاد مقرونة بترجمة في اللغة الفرنسية «بالحرب المقدسة»، لكي تثار الزوابع والهواجس والمخاوف.

فعلى سبيل المثال نشرت صحيفة «لونوفيل أوبزرفاتير» مقالاً عما وصفته بانفجار الحالة الإسلامية في فرنسا، فهناك في تلك الفترة أكثر من ألف مسجد وأكثر من ستمائة جمعية إسلامية تم مهاجمة البعض منها وتكرار العمليات الإرهابية،

واختطاف الرهائن الأجانب، هذا هو التصور في هذه الدول عن الإسلام وما يقوم به الإعلام التي لا يمكن أن نبعد عنه الدور الصهيوني في تشويه صورة الإسلام في هذه المقالات والهجوم واتهام المسلمين، إن هذا العداء الغربي للإسلام لا يوجد ما يبرره، لأن الإسلام هو دين الحضارة والعلم والمساواة والحرية والديمقراطية والاعتراف بالآخر، ولكن ما نراه اليوم من حملة إعلامية غربية ضد الإسلام هو مؤامرة ليس على المسلمين بل على الغرب ومصالحه في هذه الدول.

أما في الصحف الأوروبية حيث تصف وسائل الإعلام الدين الإسلامي بالدين البدائي والإرهابي وأن الحضارة الإسلامية هي البديل عن «الشيوعية» وأيديولوجياتها خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

صحيفة «صنداي تايمز» كتبت مقالاً يحمل عنوان «الوجه القبيح للإسلام» قال فيه أن الإسلام الذي كان حضارة عظيمة تستحق الحوار معها قد انحط وأصبح ديناً بدائياً لا يستحق إلا الإخضاع وهناك مزاعم وادعاءات تزعم فيها أن الثقافة الإسلامية مختلفة جملة وتفصيلاً عن الثقافات الأخرى وغير متفتحة.

الحملات الإعلامية تظهر بين الفنية والأخرى عنصرية الغرب تجاه الإسلام مما يساهم بطبيعة الحال في تنميط صور مغلوطة تماماً عن الإسلام بوصفه ديناً للكراهية والتعصب والعنف في حين أن الإسلام برئ من كل هذه الهواجس والأفكار المغلوطة والتهم الفاسدة، فالدين الإسلامي دين تسامح وعفة لا دين قتل، إذن ماذا يريد الغرب من الإسلام والمسلمين؟ ما هدفه من تشويه صورة الدين الإسلامي الحنيف؟.

إن الكثير من المسلمين في عالمنا الإسلامي ينظرون بدهشة وحيرة إلى مظاهر العداء للإسلام والمسلمين، التي لا تخطئها عين غافل تلك المظاهر التي تتبدى في أجهزة الإعلام الصاخب القادر على اختلاق الأكاذيب، وتجاهل الحقائق وتضخيم

الصغير من الأمر ، وتقزيم الكبير منه ، وصنع المعارك الموهومة ، وتشكيل الرأي العام الذي أصبح قوة ضغط لا يمكن إغفالها في تكوين القرار السياسي في الغرب، وهي ظاهرة العداء التي تراها أيضًا في تجييش الجيوش لغزو أراضي المسلمين- وقهر إرادتهم- وفرض مصالح الغرب عليهم بالقوة الباطشة كما حدث في العراق وأفغانستان.

العداء الأوروبي للإسلام حقيقة واقعة، وهو ليس مجرد ضرب من الأوهام أو محاولات تسميم العلاقات بين العرب والمسلمين من جهة ، وبين أوروبا والغرب من جهة أخرى، وهو عداء يحتاج إلى وقفة جادة من الدول العربية والإسلامية، وبحثه على أعلى المستويات الأوروبية لمحاولة وضع حد لهذا العداء قبل أن تزداد الأزمة يوماً بعد يوم وهذا ما يقودنا إلى تحقيق نبوءة «صدام الحضارات» التي بشر بها «صاموئيل هنتجتون» وهو صدام يبدأ ثقافيًا وينتهي مسلحًا.

وهنا لابد من الإقرار أن مسألة العداء للإسلام في أوروبا حالياً تخطت المفهوم المحايد لمصطلح «الإسلاموفوبيا» الذي يعني مجرد النفور من الإسلام، فما هو موجود حالياً ليس النفور السلبي بمعنى «الرفض والابتعاد» بل تحول إلى نفور محمل بالعداء والإقصاء، وهو ما أشارت إليه المنظمات الإسلامية التي عقدت اجتماعها في فرنسا، ونددت بوجود «مناخ فاسد» ومعاد للإسلام وزيادة النظرة السلبية للمسلمين في فرنسا، واعتبرت أن المسلم في أوروبا بات الحلقة الأضعف. ولا تنقص الذرائع لتوجيه أصابع الاتهام إليه، وأن الموقف ضد الإسلام والمسلمين يشهد حالة من التشنج تغذيه النقاشات حول الهوية الوطنية والنقاب، وتصويت سويسرا على منع المآذن.

لا يمكن لنا أن نتغاضى عن وجود اشتباك ثقافي عقائدي ديني داخل الدول الأوروبية نفسها، وهي حالة يمكن أن تتمدد إذا لم تعالج على أسس صحيحة تقوم على

المعارضة الكاملة والاعتراف، ولابد للغرب وفي مقدمته أوروبا أن تعترف أنه يستهدفنا دينيًّا وعقائديًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وماليًّا وهو استهداف مستمر منذ قرون.

لنعود إلى ما قاله بابا الفاتيكان (بينديكت السادس عشر) في محاضرة علمية ألقاها في جامعة «زيجنسبور» الألمانية، أمام نخبة من المثقفين والأكاديميين.

فقط أرني ما آتي به محمد وجاء جديدًا، عندها ستجد فقط ما هو شرير ولا إنساني، فأمره نشر الدين الذي نادى به بالسيف] لم يجد البابا إلا هذه الحيل ليستشهد بها في محاضرته وهذا أمر عادي لأن الكنيسة مجبولة على مثل هذا السلوك، الذي يعبر عن انفصام عميق في شخصيتها المتقلبة الأطوار، فهي تبدي غير ما تخفي، وهي تعقد مقارنة ضمنية بين الإسلام والمسيحية، وهي تسعى إلى إثبات أفضلية المسيحية على الإسلام ، وهذا يستجلي منذ البداية من تهجمه على الإسلام وقدحه الظاهر في جملة من الأمور التي تعتبر مسلمات وبديهيات في العقيدة الإسلامية والتي لا تنكشف إلا من خلال القراءة العميقة، ليخلص القارئ أو الباحث من ذلك بشكل أو بآخر.

ولئن كان واضحاً بالمنطق العقلي المنظور، والدليل الواقعي الملموس لدى الكنيسة: أن الدين الإسلامي يشمل كل تلك السلوكيات والمعاملات والأخلاق والقيم التي من شأنها أن تخلق تماماً عالماً سمحاً تنتفي فيه الفوارق والطبقية، وتتلاشى فيه العنصرية العرقية أو الدينية أو غيرهما. إلى درجة أن قوانين الشريعة الإسلامية تسمح لرعايا الدول الأجنبية المعادية للإسلام بحق المواطنة على تراب الدول الإسلامية ولئن كان الأمر كذلك، فإن الكنيسة طالما تجاهلت هذا الوجه السمح للإسلام وصنفته في لائحته الأديان والثقافات المنبوذة، ليس لأنه يستحق النبذ ولكن لأنه يملك الحقيقة التي تخشى منها الكنيسة.

— أسباب صعود الإسلاموفوبيا —

هناك قراءة مختلفة لأسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا خلال الآونة الأخيرة، منها قراءة ثقافية ترى أن صعود الإسلامو مفوبيا هو انعكاس لمشاعر سلبية عميقة مدفونة في وعي المواطن الغربي ضد الإسلام والمسلمين، وتعبير عن تحيز تاريخي وثائقي ضد الإسلام كدين، وضد المسلمين وحضارتهم.

وقراءة ثانية ترى ظاهرة الإسلاموفوبيا هي نتاج لبعض الأحداث الدولية التي أثرت بقوة على العلاقات بين العالم الإسلامي والمجتمعات الغربية خلال السنوات الأخيرة، وعلى رأس هذه الأحداث هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، وما تبعها من هجمات حيث رفع مرتكبوها شعارات إسلامية، ضربت مجتمعات غربية مختلفة مثل أسبانيا وبريطانيا، هذا إضافة إلى بعض المشكلات الثقافية الدولية التي أثرت سلباً على العلاقات الإسلامية – الغربية مثل أزمة الرسوم الدانماركية وأزمة تصريحات البابا بنديكت السادس عشر وأزمة الحجاب في فرنسا، وتصريحات بعض القيادات الغربية الدينية والسياسية المسيئة للمسلمين.

أما القراءة الثالثة، وهي المطروحة في هذا المجال، فهي قراءة سياسية اقتصادية، ترى أن صعود الإسلاموفوبيا خلال السنوات الأخيرة انعكس لبعض التغيرات المجتمعية الكبرى التي لحقت بالمجتمعات الغربية والإسلامية خلال العقود الأخيرة، وعلى رأس هذه التحولات تراجع قوى اليسار الغربي التقليدية التي سادت خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وصعود قوى اليمين الثقافي والديني في الغرب والعالم الإسلامي خلال الفترة ذاتها، ويعيب القراءة الثقافية

لظاهرة الإسلاموفوبيا طبيعتها القدرية التي تكاد تفرض أن الخلاف الثقافي بين المسلمين وأبناء المجتمعات الغربية خلاف حتمي، وتكاد تعفي المسلمين من مسئولية فهم المجتمعات الغربية ، تفاصيل ما يدور فيها ، كما تعفيهم من سبل توعيتها بصورة الإسلام الصحيحة خاصة في ظل تنامي أعداد المسلمين في الدول الغربية، وانفتاح أعداد متزايدة من أبناء تلك المجتمعات على فهم الإسلام والمسلمين وتنامي قوى العولمة والاتصالات بما يسهل عملية التواصل مع الآخر وتوعيته ويعيب القراءة الثانية أنها قد تقتصر على الأحداث المادية وتصورها منزوعة عن سياقها وكأنها ولدت لحظياً وليست نتاجاً لتراكمات حدثت عبر عقود.

لذا تمثل القراءة الثالثة أسلوبًا أكثر ديناميكية لفهم أسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا إلى المجتمعات القريبة خلال العقود الأربعة الأخيرة، وهي قراءة ترى أن للمسلمين والعرب دوراً يمكن أن يلعبوه للتأثير على مسار تلك الظاهرة الخطيرة.

نحو قراءة ديناميكية للظاهرة

القراءة الثالثة لأسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا تعود بنا إلى أوائل النصف الثاني من القرن العشرين وهي فترة وصلت فيها التيارات اليسارية إلى قمة سيطرتها على المجتمعات الغربية وراحت تنشر أجندتها الناقدة للتراث الغربي والتقليدي باعتباره تراثاً منغلقاً على الذات، وراحت في المقابل تطالب بالانفتاح على الآخر: «الديني والعرقي والوطني» من خلال أفكار وبرامج سياسية ترحب بهذا الآخر في المجتمعات الغربية ذاتها وتضمن له حقوقاً ومزايا مختلفة.

السيطرة الثقافية لليسار الغربي كانت انعكاساً للسيطرة السياسية لشرائح يسارية بات ينظر إليها اليوم على أنها قوة تقليدية متراجعة النفوذ وعلى رأس تلك القوى

الحركات العمالية والمؤسسات النقابية والسياسية المعبرة عنها.

هذا إضافة إلى طبيعة السياسيات الدولية خلال تلك المرحلة ووجود الاتحاد السوفيتي كدولة عظمى تمثل التيار اليساري وتنشر أفكاره وسياساته عبر العالم بما في ذلك العديد من بلدان العالم الثالث. سيطرة اليسار داخل المجتمعات الغربية وحضوره على المستوى الدولي، تبلور عند نهاية الحرب العالمية الأولى ووصولاً إلى قمتها في ستينيات القرن العشرين ولكنها لم يدوما طويلاً، منذ بداية السبعينيات شهدت المجتمعات الغربية والساحة الدولية العديد من المتغيرات الكبرى التي أخضعت اليسار وبرامجه، على المستوى الاقتصادي بدأت المجتمعات الغربية في التحول من الاقتصاد الصناعي إلى الخدمات ثم إلى اقتصاد المعلومات كما زاد التنافس الاقتصادي الدولي بين الدول الغربية بعضها بعضاً من ناحية، وبين الدول الغربية وبعض القوى الدولية الصاعدة- كبعض بلدان آسيا من ناحية أخرى.

وقد شهدت الساحة الدولية تغيرات كبرى ساهمت في تراجع اليسار الغربي وعلى رأس هذه التحولات سقوط الاتحاد السوفيتي وفشله كنموذج سياسي واقتصادي، وتعرض القوى اليسارية عبر العالم لتحديات اقتصادية وسياسية مختلفة، من بينها هزيمة اليسار في الشرق الأوسط مما ساعد في صعود قوى اليمين في المنطقة.

وفي ظل هذه البيئة وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول التي رأت فيها بعض القوى اليمينية الغربية المتطرفة فرصة لترويج نظرية طرحتها منذ سقوط الاتحاد السوفيتي، تقول إن الغرب في حاجة إلى عدو جديد يتوحد ضده وأن الإسلام مرشح للعب هذا الدور- خاصة أن الإسلام دين أجنبي وأن للمسلمين وجوداً متنامياً في المجتمعات الغربية مما يجعلهم هدفاً سهلاً للعنصرية الجديدة.

دور اليمين الإسلامي

القراءة السابقة لأسباب صعود وانتشار الإسلاموفوبيا بالمجتمعات الغربية مؤخراً ترى أن للمسلمين دورًا يمكن أن يلعبوه في مواجهة تلك الظاهرة، وعلى رأس هذا الدور التحالف على المدى البعيد- مع قوى اليسار الغربي لإحياء الأجندة اليسارية القائمة على نشر قيم العدالة الاجتماعية واحترام حقوق الآخرين والأقليات.

ويكون ذلك عن طريق فهم طبيعة هذه الأجندة، وما تعنيه على المستويات المختلفة، والتوفيق الإيجابي غير التلفيقي بين عناصر تلك الأجندة والفكر الإسلامي على مختلف المستويات بما في ذلك المستويات الفكرية والأخلاقية.

والواضح هنا أن قوى اليمين الإسلامية أقرب من قوى اليسار الغربية في أجندتها السياسية والاقتصادية مقارنة بقوى اليمين، وأن هناك بعض الخلافات الثقافية المتعلقة بقضايا الأسرة والعلاقات الاجتماعية التي تشكل نقاط تعارض بين اليمين الإسلامي واليسار الغربي، وأن الواضح هنا أن العالم الإسلامي مازال يفتقر بوضوح لتلك البرامج بعد مرور هذه السنوات على أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.

والمهمة الثانية هي التعاون مع الأقليات المسلمة في الدول الغربية لتأهيل وتدريب أكبر عدد من السفراء المدنيين والقادرين على تقديم صورة الإسلام الصحيحة للمواطن الغربي بشكل يومي ومؤسسي منظم.

العداء للاسلام

(ويسلم الرب إلهك أولئك الأمم بين يديك .. ويوقع عليهم اضطرابًا شديدًا حتى يفنوا .. ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو أسماءهم من تحت السماء فلا يقف

أحد بين يديك حتى تفنيهم .. سفر تثنية الاشتراع الفصل السابع ٢٣، ٢٤).

هنا نسأل، هل يحتوي القرآن على مثل هذه الدعوة إلى الإبادة؟ لا ؛ لأن هذه الكلمات مستنة من العهد القديم.

الرجل رأس المرأة .. إن المرأة لم تتعظ فليقص شعرها .. أما الرجل فلا ينبغي له أن يغطي رأسه إذ هو صورة الله ومجده .. أما المرأة فهي مجد الرجل .. لم يخلق الرجل من أجل المرأة بل المرأة لأجل الرجل، لذلك ينبغي أن يكون لها سلطان على رأسها.

نعود إلى السؤال الآخر- هل الأمر الموجه إلى النساء بتغطية رؤوسهن وإطاعة الرجل موجودة في القرآن؟ لا يوجد ذلك ، بل هو ورد في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثيا.

هل تمثل هذه المقتطفات السبب الحقيقي وراء الحملات الصليبية والألف حرب وحرب التي أدمت العالم اليهودي- المسيحي طوال قرون من الزمن؟ هل تؤسس لتهميش المرأة في هذه المجتمعات نفسها؟ إنه لمن السخف الاعتقاد بذلك .. فلماذا إذا، ومنذ ١١ سبتمبر يحاول بعض المثقفين والخبراء إقناعنا بأن مصدر المصائب التي تعيشها بلاد الإسلام موجود في القرآن، ارجعوا إلى الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً.

لماذا يحاول هؤلاء المثقفون تشويه الإسلام وإظهاره في هذه الصورة؟ ولماذا التركيز عليه ؛ لأنه دين العدالة الاجتماعية والديمقراطية والعلم والمعرفة والاحترام للآخر.

يحذر المفكر الفلسطيني – إدوارد سعيد- بقوله: علينا التعامل مع مفهوم الإسلام بحذر. إننا عندما نتكلم عن الإسلام نلغي تلقائياً إلى حد ما- الزمان والمكان- ويوضح أن كلمة الإسلام تحدد جزءاً يسيراً نسبياً مما يحدث في العالم الإسلامي الذي يعد أكثر من مليار ونصف المليار نسمة، ويتضمن عشرات البلدان

والمجتمعات والتقاليد واللغات، وطبعاً عدداً لا حد له من التجارب المختلفة ومن الخطأ محاولة اختزال ذلك كله بشيء اسمه الإسلام.

ومن مساوئ جاك روله الأستاذ المحاضر في جامعة روان الفرنسية وعالم اللاهوت الكاثوليكي أنه ينسى التاريخ وتعرجاته فيقول: «منذ محمد والإسلام فتح، محمد نفسه كان محارباً عسكرياً وفاتحاً. يسوع لم يحمل السلاح ولم يحارب».

هذا الفرق جوهري بين النظريتين التي أطلقها روله باختلاف الزمن والوقت، إذ منذ ظهوره في القرن السابع وعلى مدى قرنين أو ثلاثة فقط عرف الإسلام انتشاراً ساحقاً، وجاءت الانتصارات العسكرية لتؤكد لمسلمي القرون الوسطى أن دينهم دين الحق، وبسبب الحملات الصليبية التي ضاعفت من ظاهرة وفكرة الإسلام ليس إسلاماً إذا لم ينجح عسكرياً لا شيء يجب أن يقف إذن في وجه انتشار الإسلام، هذا صلب القرآن.

في هذا الإطار منذ التسعينيات وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي بدأ بعض الساسة ومراكز البحوث في التفتيش عن عدو جديد وطالعتنا صحيفة «نيويورك تايمز» بالقول: «تتحول الأصولية الإسلامية بسرعة إلى تهديد رئيسي للسلام الشامل والآمن .. ويشبه هذا تهديد النازية والفاشية في الثلاثينيات كما الشيوعيين في الخمسينيات».

يعيش المسلمون حالة ضعف تحت سيطرة أنظمة غير شرعية في أغلب الأحيان ومدعومة من الغرب.

لابد من العلاقة بين الغرب والإسلام

١- الغرب: من العسير جدًّا تحديد الغرب بتعريف معين يشمله بجميع فئاته وهيئاته؛ لأنه مكون من عناصر معقدة تجعل من الصعوبة بمكان وضعه تحت العنوان «الاختزالي» «الغرب» فهذه مجرد تسمية لتعريف سهل يستعمل في اللغة

اليومية، فالغرب ليس فقط الإعلام أو البيت الأبيض أو الامبريالية أو الاستشراق أو اللوبي الصهيوني أو أو ...، ولكنه أيضاً له ثقافة ذات مرجعيات معتبرة وحضارة وتاريخ، مع الأخذ في الاعتبار أن الغرب مكون أيضاً من عدد غير محدد من الأفراد والحركات وجماعات الضغط التي لا تقع ضمن أي من تلك الدوائر.

٢- الإسلام عندنا- نحن المسلمين- هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، ولكن ما يهمنا هنا هو ما يعنيه الإسلام في نظر الغربيين، فمعظمهم لا يعترف به كدين سماوي، وكثير ممن يقر بأنه دين، يقصره على العرب دون سواهم، ثم هم يرون بأن الإسلام تيارات متعددة فمعظم المفكرين في الغرب مقتنع بأن التيار الإسلامي ليس تيارا واحدا، وإنما هو عدة تيارات مختلفة، وهناك تمييز واضح بين الإسلام التقليدي حسب ما يسمونه، والإسلام الثوري أو ما يسميه «جيمس بيل»، بإسلام المؤسسات، والإسلام الشعبي، فيما قسم آخرون الحركات الإسلامية على أساس مناهجها في الإصلاح، وهناك تقسيم ثالث يفرق بين التيارات الإسلامية التي تؤمن بالإصلاح من خلال استيعاب أفكار ومصطلحات أجنبية، وبين أولئك الذين يرفضون الانفتاح على الغرب، هذا هو على وجه التقريب مفهوم الإسلام لدى الغرب.

وبحسب المفهوم السابق عرفنا أن الغرب ليس مجرد كيان واحد أو كتلة واحدة يمكن الحكم عليها بحكم واحد، هكذا من غير تفضيل- بل هم دول متعددة ومجتمعات مختلفة، ولهم أيضاً ديانات متغايرة، فاليهود على اليهودية والنصارى- عباد الصليب- على النصرانية، وهم أيضاً على ثلاثة مذاهب رئيسية- البروتستانت- والكاثوليك- والأرثوذكس- ولهم مذاهب أخرى متعددة غير هذه الثلاثة، كما أن الغرب فيه الملاحدة والشيوعيين واليهود والنصارى، منذ زمن بعيد

ليسوا على دين موسى ولا عيسى بن مريم، بل هم على الكتب المحرفة عن التوراة والإنجيل. وهم على الشرك وليس على التوحيد الذي تدعو إليه الرسل، ولذلك فهم أعداء التوحيد.

كما أن للغرب هيئات ومؤسسات متعددة منها ما له تأثير كبير على الرأي العام والقرار. كالإعلام والعلماء والمفكرين والأكاديميين، وصناع القرار، ومنهم عامة من كافة أفراد الشعوب الغربية والذي يهمنا هنا هم أولئك الذين يؤثرون تأثيراً كبيراً على المسلمين من جهة، وعلى الشعوب الغربية من جهة ثانية، وعلى صناعة القرار من جهة ثالثة، أولئك هم الفئات الثلاث: الإعلاميون- الأكاديميون- صناع القرار .. السياسيون.

الواقع أن هؤلاء الأكاديميين هم أولئك النفر الذين عنوا بدراسات مختلفة عن الشرق الإسلامي شملت حضاراته وأديانه وآدابه وثقافته، ويعرف هؤلاء بالمستشرقين ، وقد كان الباعث لهم على سلوك هذا المنحنى شدة الحاجة إلى الهجوم على الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر. نتيجة لما رأوه من أن الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين، وأخذت تشكلهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم فيما مضى، وكذلك ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم الحروب الصليبية، ثم الفتوحات العثمانية في أوروبا بعد ذلك في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام والكره لأهله فاستغلوا هذا الجو النفسي، وازدادوا نشاطاً في الدراسات الإسلامية تدفعهم في ذلك عدة دوافع منها:

١- **الدافع الديني**: والذي بدأ بالرهبان مستمراً إلى عصرنا الحاضر، وكان هَمُّ هؤلاء أن يطعنوا في الإسلام ، ويشوهوا محاسنه ، ويحرفوا حقائقه، ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن

المسلمين «قوم همج»، لصوص، وسفاكو دماء يحثهم دينهم على الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو.

٢- **الدافع الاستعماري:** لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد المسلمين بعد هزيمتهم وانتهاء الحروب الصليبية، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ليتعرفوا على مواطن القوة فيضعفونها، ومواطن الضعف فيغتنمونها، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الإستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا، وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث وما عندنا من ديانة.

٣- **الدافع التجاري:** وهو أحد الدوافع الاستشراقية، رغبة في تعامل الغربيين مع المسلمين لترويج بضائعهم، وشراء موارد المسلمين الطبيعية الخام بأبخس الأثمان، ولقتل الصناعات المحلية الإسلامية التي كانت لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلف بلاد المسلمين.

٤- **الدافع السياسي:** وهذا يتجلى في عصرنا الحاضر بعد استقلال الدول العربية والإسلامية .. ففي كل سفارة من سفارات الدول الغربية لدى الدول العربية والإسلامية «سكرتير» أو «ملحق ثقافي» يحسن اللغة العربية أو لغة البلد الذي يعمل به، ليتمكن من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة فيتعرف على أفكارهم، ويبث فيهم من الاتجاهات السياسية وما تريده دولته، وكثيراً ما كانوا يبثون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبين الدول العربية والدول الإسلامية تحت ستار توجيه النصح وإسداء المعونة، وليست حادثة مشورة السفيرة الأمريكية في بغداد قبل احتلال الكويت منا ببعيد.

٥- الدافع العلمي: من المستشرقين نفر قليل جداً أقبلوا على الاستشراق بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها.

موقف المستشرقين من الإسلام:

ينقسم المستشرقون في مواقفهم من الإسلام إلى قسمين:

القسم الأول: قسم متعصب شديد العداء للإسلام، وهؤلاء يسعون جهدهم للطعن في هذا الدين، وتشويه صورته الناصعة البياض في نفوس الغافلين من الغربيين سواء من المفكرين أو من غيرهم من بقية الشعوب، حتى لا يتعرفوا على محاسن هذا الدين، فيسلكوا سبيله وينهجوا منهجه، فيفقد هؤلاء المستشرقون أهدافهم ويخسرون كل ما يسعون إليه.

المخاطر التي تهدد العالم الإسلامي:

«لقاء الحضارات» من العبارات التي تزايد استخدامها في الآونة الأخيرة بشكل لافت للنظر، فهي عبارة متعددة المعاني لاشتمالها على العديد من المجالات وتزداد أهميتها إذا ما نظرنا إليها في إطار المجال الديني، وخاصة في إطار ما يطلق عليه «حوار الحضارات».

أثناء انعقاد المجتمع عام ١٩٦٤ قام الفاتيكان بتكوين منظمتين هما «المجلس البابوي للحوار بين الديانات» و«اللجنة العليا لتنصير الشعوب» وهاتان المنظمتان على اتصال دائم بالعالمين في بعثات التبشير والحوار الديني بالعالم أجمع. وذلك إلى جانب كونهما من أهم الإدارات الفرعية والمنظمات التي تضمنها إدارة البابوية ومنها: سكرتارية دولة الفاتيكان والمجالس العليا وعددها (١١) والمحاكم، والمجالس العامة وعددها (١١) إلى جانب الإدارات الإدارية.

إن العالم الإسلامي يعيش اليوم، أدق وأخطر مراحل التحول في علاقاته الدولية .. حيث تغيرت ملامح الصورة وتبدلت الموازين العالمية بعد ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، وعالم اليوم الذي تمثل فيه الأمة الإسلامية موقع الوسط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب .. يجتاز مرحلة شديدة الحساسية والتعقيد والتحولات والتحديات العظمى التي تدق أبواب العالم الإسلامي من كل جانب وعندما نتحدث عن العالم الإسلامي نعني ضمناً الوطن العربي.

هنا وجب علينا كمفكرين وقوميين ضرورة الوقوف والتصدي لهذه الهجمة الشرسة التي يتعرض إليها عالمنا المعاصر الجديد.

إن التحولات من القطبية الثنائية إلى نظام القطب الواحد يعني أن العالم أصبح الآن أحادي التوجه، وتوجب تجديد الدور الإسلامي في عالمنا المعاصر ليقوم على الحوار والتفاوض.

والأهم من ذلك هو قدرة العالم الإسلامي على إعادة تشكيل نفسه حتى يمكنه التعامل الإيجابي مع هذه المتغيرات التي تطرح فرصاً ينبغي انتهازها ضمن مخاطر المتغيرات التي تهدد العالم الإسلامي.

ازدياد الفجوة التكنولوجية بين العالم الإسلامي والشمال المتقدم الصناعي الرأسمالي أن العالم الإسلامي وهو يدخل القرن الحادي والعشرين لا يستطيع أن ينأى عن التطورات والمتغيرات التي تجري في النظام العالمي الجديد، بل يجب عليه مواجهتها بمفاهيم تتواكب مع المعطيات الدولية الجديدة من الخيارات المطروحة عليه بما يحقق خيراً للأمة الإسلامية جمعاء، والعمل على تعزيز الروابط السياسية والاقتصادية بين دولها وتوسيع آفاق التعاون بينها في مختلف المجالات.

خلقت المتغيرات التي حدثت منذ أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول فجوة واسعة بين

الشعوب الضعيفة وبين تلك الدول التي تريد التحكم بأقدار ومصير هذه الشعوب، وبدأ الصراع يأخذ منعطفاً جديداً في صراع الحضارات بين الشرق والغرب، أو منطلقاً آخر يذكرنا بالحروب الصليبية التي حدثنا التاريخ عنها كحروب استعمارية ضد العروبة والإسلام.

وتصريحات القادة في الغرب المسيحي والتي أكد الجميع أنها الحرب الصليبية الجديدة ضد الإسلام، وأن ما يجري الآن في كل الساحات العربية والإسلامية هو تأكيد لمعاني هذه الحرب.

ومنذ أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول اندلعت حملة واسعة من العدوان والشك والتحريض ضد جميع العرب والمسلمين كما ارتفعت في الغرب أصوات كثيرة تدعي أن الحضارة الغربية والإسلامية تحمل في نسيجها بذور العنف والإرهاب، وأنها تمثل بذلك الخصم الأكبر والنقيض الكامل لكل ما هو غربي بل لكل ما هو إنساني وحضاري.

إن مكمن الخطورة في هذا التوجه أنه يصدر عن ساسة كبار مثل «تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، ومفكرين مثل هنتجتون وفوكوياما، ويناقض الثوابت الإسلامية التي تتمثل في التعايش الإيجابي ، وفي ثقافة الحوار والسلام وتجنب الصراع والفتن والحروب الظالمة، وغيرها من مبادئ يقررها الإسلام أصلاً مرتكزاً للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

أما ما يتردد في الأوساط الغربية ضد الإسلام، فهو فهم مغلوط، وفكر مدمر لا يفهم قيم الإسلام ومثله العليا في الحياة، فإن الإسلام الحضاري رفع من قيمة الإنسان.

لقد نشر الإسلام حضارته الإنسانية في كل أنحاء العالم ، وفي غمرة هذا

الإحساس بالنجاح للإسلام سياسيًّا وعسكريًّا في تحرير آسيا وشمال إفريقيا- رأى الغرب- الغارق في ظلامه، أن الفتوحات الإسلامية ضربة قاصمة له، ولعل ذلك ما يفسر التحامل على الإسلام من مؤرخي الغرب في الماضي والحاضر.

إن لهجة الغربيين اليوم في كلامهم عن الإسلام والمسلمين ليست من النوع الذي يثير الرغبة في محاولة تحسين صورة الإسلام والمسلمين في أعينهم ، بل من النوع الذي يثير الغضب والحنق، لقد أساؤوا الأدب في الكلام عن شيء نبيل وعزيز لدينا.

إن العداء الغربي للإسلام والمسلمين ليس بالجديد علينا كما ذكرنا سابقاً، ولكن بدأت حملة واسعة استخدمت فيها كل وسائل الإعلام لنشر صورة سيئة للإسلام والمسلمين في الغرب.

وعند الحديث اليوم عن الإسلام، فهناك الإسلام والحضارة كما تمثل ويتمثل في ثمرات العقل المسلم ، وتجربة المسلمين في مختلف مناحي الحياة الدنيا التي يستطيع العقل الإنساني أن يدرك حسنها أو قبحها، نفعها، أو ضررها، دون عجز أو قصور بفطرته إلى أن يستلهم فيها رأي الوحي وكلمة السماء.

ولقد عرف العرب والمسلمون. الإسلام الحضارة منذ تأسيس دولتهم الأولى «دولة المدينة» تلك التي كانت بيعة العقبة، عقداً تأسيسياً لها، والتي تبلورت ومؤسساتها تدريجيًّا منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. .

إن التحديات التي تواجه العروبة والإسلام كثيرة جداً فلابد أن نكون حذرين من هذه التحديات التي تواجهنا، خاصة أن الأعداء يحيطون بنا من كل جانب وخاصة الدولة الصهيونية التي غرست في قلب الوطن العربي والإسلامي يساندها كل أعداء العرب والإسلام، من أجل تدعيمها وتقويتها لتكون عائقاً أمام التطور

العربي الإسلامي، حيث أن الأمة العربية والإسلامية تعاني من الغزو الفكري الذي يعمل على شغل الناس بكل ما هو بعيد عن الفهم الصحيح لمبادئ الإسلام والعروبة. ولا يخفى على أحد أن التيارات الغازية تعمل بكل ما تملك من إمكانيات على غزو المجتمعات الإسلامية والعربية، غزوا يفتن الأمة ويضعف انطلاقها ويقيد حركتها ويبعدها عن الواقع.

أن أصحاب التيارات المعادية للإسلام لازالوا يتحركون ولا يزال الغزو الفكري الجذور ويركز على تشويه الأصول.

أن عمليات الاستشراق والتغريب لم تستسلم ولم تلق السلاح، ولكن تحاول أن تعيد جهودها من خلال شعارات جديدة وهي «صراع الحضارات» أو صراع الشرق والغرب.

ومع ذلك لم نتمكن من أن تنتصر لأن الإسلام دين العدالة والمساواة والإخاء والاعتراف بالآخر.